نقد تطبيقي

أبعاد التجربة الشعرية في «ينابيع العطش»

د. عمر عبدالرحمن الساريسي

نشرت وزارة الثقافة . في المملكة الأردنية الهاشمية. مجموعة شعرية أطلق عليها اسم «ينابيع العطش» للشاعر جهاد جميل الجيوسي – رحمه الله –. من مواليد «جيّوس» من أعمال طولكرم بفلسطين.

ومن المقدمة الموجزة التي عرّف فيها بهذه المجموعة الأديب محمد ناجي عمارة، يدرك القارئ أنها هي المجموعة الوحيدة لهذا الشاعر، الذي نشأ في الأردن، وحمل الجنسية الأردنية، وجمعته به صداقة في مقاعد الطلب في الجامعة الأردنية. وأن هذا الشاعر قد غادر هذه الدنيا قبل أن تعمل الأيدي الخيّرة من أهله ومن العارفين بشعره على جمعها وإذاعتها في الناس.

وكانت هذه المقدمة على وجازتها، جاذباً كافياً للنظر في هذه المجموعة والدخول فيها.

ظمأ ومعاناة:

ولعل أبرز ما يلقاه الداخل فيها، إحساس مرهف، إلى حد متميز بما يعانيه صاحبها من ألم الإحباط، في الواقع المؤلم، الذي تحياه كرامة الإنسان العربي المعاصر بعامة أو الفلسطيني بخاصة، بعد أن انتزعت منه إرادته، وبعد أن أُبعد عن أرضه، وتعاون عليه الأعداء، حتى لم يعد يمارس حريته ويحقق وجوده.

إنك تحسّ بإحساس هذا الشاعر وبطعم المرارة في فمه، وبظمئه الشديد إلى ينابيع الخير والحرية والكرامة في قصائده العمودية وقصائد التفعيلة، في شعره المباشر، وفي شعره الشفاف الموحي في معانيه الحسيّة والرمزية، في القصائد الطويلة في الديوان، وفي المقطوعات الصغيرة، في الموضوعات الاجتماعية التي يطرقها أو التجريدية التي يختارها.

وأحتزئ لذلك كله شيئا من القصيدة الأخيرة في الديوان التي أطلق عليها اسم «ينابيع الملح ونهر العطش». فهي تعكس الواقع المتاح بما يرى فيه المبدع جفافا ويبوسة، وبما يطمح إليه – من بعد – من آمال واعدة بالري الحلال والأمل البديل، والقصيدة مزيج من الشعر الحديث والمقفى:

وتشحنني قصة العطش السرمدي
تكهربني بشعورٍ يفجّرُ في داخلِ الروح ألف خلية قهرٍ ونهر غضب
وتشتعلُ النَّفْسُ ثورةَ رفضٍ لكلّ مواسم هذا الجفافْ
ويعلو الهُتافُ
فأجتازُ كلَّ الشواطئْ
أُحطّمُ كُلَّ الجُسورْ
وشيئاً فشيئاً كمثل الهشيم الذي دبَّ فيه الشَّررْ
تعاظَمَ مَدُّ الهُتافْ
ودوّى نَشيدُ العطشْ
تشارك فيه بقايا الشجرْ
وألسنةُ اللهب المُشرئبّ
وأنسجةُ الأنهر اليابسةْ
وتعزف فيه السواقي بغير وترْ
أناشيد يهتز منها فؤاد الحجرْ.

وتكون الأناشيد التي يذكرها في البيت الأخير قصيدة من البحر المتقارب:

يبابٌ يبابٌ وما منْ مطرْ ... سئمنا الجفاف شربْنا الضجرْ
بحثْنا عن الماء في كلّ نبْع ... فلم نلْق في النبْع إلا الكدرْ
ينابيعُ ملح أُجاج زُعاف ... أشدُّ من العطش المُنتظرْ
سمعنا عن الماء، لكنّنا ... شربْنا السَّراب بكأس النَّظرْ

هذا ما يعيشه الشاعر من ظمأ مرّ، فما هو الحلم؟

فهل من سبيل لشرب المياه ... وهل من سبيل لدرء الخَطَرْ
وهل قطراتُ الندى اللؤلؤيّ ... تعودُ فتسقي الثرى المُحْتَضَرْ
وتَسْكُبُ فوق شفاه البنفسج ... شَهْدَ الحَيَاةِ ورُوحَ السَّحَرْ
وتُرجِعُ للغاب أطْيَارَهُ ... فكم طائرٍ عُشُّهُ قد هَجَرْ
هو الماءُ سِرُّ الحياة العميقُ ... يغيبُ العذاب إذا ما ظَهَرْ
فلولاه أصبح هذا الوجودُ ... ينابيعَ مِلْحٍ تَصُبُّ الضَّرَرْ

إن الماء الذي يظمأ إليه الشاعرُ الجيُّوسي في زمان الخراب هو ماء الحياة العربية الإسلامية الصافية، التي لم تكدرها شوائب الحضارة الغربية الغازية، هو ماء:

إذا مَرَّ بالنسمات انْتَشَتْ ... وأسْكَرَها برحيق الخَدَرْ
وإن مرَّت الريحُ من قربه ... أقامت وألْقت عِصِيَّ السَّفَرْ

وإلى هذا الماء يحنّ الشاعر المرحوم وينتظر:

فهل يترقرقُ نهرُ الحياة ... وينسابُ فيه شِرَاعُ العُمُرْ؟
ويبدأ صفحته باسماً ... وتنقلبُ الصفحاتُ الأُخَرْ
فقطرةُ ماءٍ نقيٍّ فُرَاتٍ ... تعوّضُ دهراً صدىً قد غَبَرْ

دعوة إلى الأصالة:

إن الظمأ إلى هذا الماء الفرات الذي يمكن أن يكون خير عوض عن دهر من العطش هو، فيما يرى الباحث، البعد الثاني من أبعاد التجربة الشعرية في هذا الديوان بعد الإحساس بالغربة والشوق إلى النبع الأصيل، وأعني به ما يدعو إليه الشاعر من العودة إلى الحياة العربية الإسلامية الأصيلة القائمة على الأصول الجغرافية والتاريخية للأمة.

إن هذه الدعوة يقع عليها كل متصفح لصفحات الديوان وقصائده وأبياته.

إنه يدعو إلى الالتزام بالإيمان:

حريةُ الحب في تثبيت عروته ... بما يعززها من حبل إيمان

ويدعو إلى حرية الأخلاق من ضغوط الفكر المستورد:

وإنما أخطرُ الأشياءِ قاطبةً ... أميةُ الفكرِ والأخلاقِ والقِيَم

ويدعو إلى الوقوف في وجه الغزو الثقافي الزاحف:

مَنْ يوقف هذا المدّ من دود العفن الأزرق؟

مَنْ يرفع عن صدر الوردة أرتال ذباب مندسّ بين صفوف النَّحل الحُرّ؟

إن الشاعر في أفكاره يحتفل باهتمّ العام، ولكنه في بعض مواضع منها يبدأ بالخاص ليصل إلى العام، فيتحدث عما يحب وما يكره أحياناً، وما يلقى من تجارب شخصية، وتناول بعض الموضوعات ذات الطابع الاجتماعي المحض، ولكن من زاوية اهم العام، كحديثه عن يوم المرور مثلا (ص٣٤)، وما يوجه من خلاله من نظرات اجتماعية. أو كحديثه مع مذنّب هالي وما يحمل لأطفال الوطن في الغد (ص٧٤)، أو ما يُحيّي به جهاد الأفغان مثلا (ص٦٩)، أو ما يدعو إليه من تحرير المسجد الأقصى (ص٦٠). وقد تقع بين هذا وذاك على نظرات قد تعدُّ في الحِكَم، كقوله:

قصائده دعوة مُلحة للعودة إلى أصالة الحياة ونبض الأمة

ومن رامَ في الدُّنيا الخلودَ فَمَيِّتٌ ... ومن رام خُلْداً بالرَّدى فمُخَلَّدْ

من التجربة الذاتية:

ويمور تحت السطح من قصائده مجموعة من اهموم الشخصية الثقيلة على نفس الشاعر، باعتباره إنساناً حساساً. ولكن هذا الشاعر لم يستسلم لهذه اهموم بل ظل على الرغم منها، صامداً صابراً قوياً.

إن المرض الذي أصاب الشاعر في شبابه قد ترك على شعره نغمة من الإحساس بالرحيل في يوم قريب، فقد غدا زورقه منهكاً أمام زعازع الرياح:

لم يبق من زورقي عينٌ ولا أثرُ ... إلا الشراع، فلا صارٍ ولا دُسُرْ
تثيره الريح من أفق إلى أفق ... كما تثير فؤاد العاشق الفكرُ

ومع ذلك فهو لا ينهدّ ولا ينهزم ولا ييأس:

يقاوم الريح في صبر وفي ثقة ... وليس ينتابه يأس ولا خور

وهو يحسّ بآلامه وهي تدفعه إلى الرحيل دفعا، ومع ذلك فهو صامد لا يشكو، ويصبر على ما ابتلاه الله به من المرض، فهو قوي بارتباطه بالخالق سبحانه فيما يكتب له:

حيـــاتي هكـــذا تمضي كمصبـــاحٍ بـــلا وَمَـضِ
فمـــن ألمٍ إلى ألمٍ إلى مـــا ليس بـــالمُرْضي
ولست أُحَبِّـــذُ الشكـــوى ولا مـــا قلتُ للعَـــرْضِ
فحمـــداً للـــذي يبني ويملك قـــوة النقض
عـــلى الضَّـــراء والســـرا ءِ في الـــلأواء والخفض

ويطلب من الله في نهاية هذه الأبيات المغفرة على التقصير في العبادة أياً كانت. والشاعر يكثر من ذكر الداء والدواء(ص٤٤، ٥٠) والبرء والسقم، وهو إيحاء ذاتي لا شعوري بمعايشة هذه الموضوعات المقلقة، وهو، في بعض مواقف حياته، يضيق ذرعاً بالمنافقين الذين يلقاهم (ص٦٩)، وببعض من يعرف من الكائدين المغتابين من الأصدقاء غير الصادقين:

إلى بـارئ الأكـوان أشكـو وأهتف وليس سوى الـرحمن للناس منصف
فدون الذي قـد نلت من كيد مَعْشَرٍ أذى نـالـه من إخوة الكيـد يُـوسُف
وإني لمستـــــاء ولكـن شيمتي تسامت بنفسي فهي عن ذاك تعزف

وتضيق في وجهه الطرقات والمساحات، في بعض الأحيان، فيتمنى الرحيل والاندغام مع الأرض في الغابات:

لـــو أنني في صميم الغـــاب أتَّخِذُ وتحت تـربتـه لـويُـدْفَنُ الجَسَـدُ

وربما كان أبلغ ما يصور إحساسه بالرحيل إلى الحياة الآخرة قوله في قصيدته «مسرح القاعة السفلية» (ص٧٩).

وكأني بـالمسرح يـرفع عنـه ستـار منسـوج من أكفـان الموتى
وكأني بـالـواقف في دائرة الضـوء الصـاعـد من جمجمـة مـؤتلقـة
يتكلم، يصرخ لكنـي لا أسمع إلا ظل الصـــوت وصـــوت الظل

الصور الفنية: أما البعد الثالث من أبعاد تجربته الشعرية التي نرى أنها بارزة أيضاً فهي قدرته على الرسم بريشة الشاعر المرهف. وقد يتضح هذا لكل من يقرأ الديوان، ولكننا نلتقط له قصيدة «أحب البنفسج» (ص٨٢) فهو فيها بارع التصوير، شديد الإيحاء، وربما بدت براعته في التصوير أيضاً في مثل قوله في رفض الصمت:

والصمت مثل السدّ يُحْبَسُ ماؤه فتراه من ضغط المياه مهيـــلا

وقوله في نظرة ممن يحب:

كأن نظـــرتها داءٌ وبسمتهـــا دواؤه، فلـــديها البُرْءُ والسَّقَـمْ

وفي المنافقين يقول:

مـن ليس يعـــــرفكم يظنُّكُمُ ذهبـــاً ويجهل أنكم خـــزَفُ

وهو، في الحديث عن أشعاره، يصور تردده في إخراج الأفكار الجديدة تصويراً معبراً:

وبصـدري من المعـاني عـذارى مـــا تبرّجن مـــذ نَهَدْنَ لغيري
كاسيـاتٌ بغير ثـوبٍ، فأخشى من ثياب الأطفـالِ يأتي التعـرّي

استطاع شاعرنا أن يمتلك أدوات التعبير واللغة باقتدار كبير

إن معانيـه عـذارى مـا فطن غيره إلى مثلها، وهن ناطقات قبل أن يكتسين ثياب الألفاظ، بل إنه يخشى أن هذه الألفاظ قد لا ترقى في الإفصاح عنهن إلى الصورة المناسبة. لاحظ هذه الصورة البديعة التي تجمع بين فطرية المعاني وبراءة الأطفال، وما بينهما من فصاحة التعبير الأصيل، قبل أن تتدخل عوامل التجميل والتحسين.

والصور الفنية التي ترسمها ريشة هذا الشاعر ليست جزئية فردية، ولكنها صور متنامية، تجتهد أن تخلق كوناً عاماً يصل أحياناً إلى الرمز في مثل قصيدة «النسر والأفعى» (ص٣١) أو قصيدة «شراع بلا زورق» (ص١١) أو قصيدة «عصفور وفخ» (ص٢٦) و«أحب البنفسج» (ص٨٢).

وقد ترتفع في بعض القصائد نغمة المباشرة، كما نجد ذلك في قصيدته «أمية الفكر» (ص٤٥) وقصيدته «نداء الأقصى» (ص٦٠)، حتى إنه يذكرنا، من خلال بعض أصواته الشعرية بأبي القاسم الشابي في رفضه لمظاهر الظلم والاستبداد، إلا أن اللمح الشعري لا يفارق الديوان على وجه الإجمال. فقصيدة «الأنجم السوداء» (ص١٤) مقصورة على خال جميل في وجه فتاة حسناء، وهو يجمع بين الإيحاء والمباشرة، ومثل ذلك «كأس النسيان» (ص٤٢) وغيرهما كثير.

التعبير المتمكن: حتى إذا وصلنا في عناصر التجربة الشعرية لدى هذا الشاعر إلى أداة التعبير واللغة وجدنا أنه قد استطاع أن يمتلك هذه الأداة باقتدار يسجل له، على الرغم من أنه ليس واسع الخبرة في دنيا صناعة الشعر، فقد قلّ بين المهد واللحد لبثه، كما يقول ابن الرومي في رثاء ولد له توفي صغيراً.

فلقد توفر الشاعر على جزالة في التراكيب الشعرية، تدل على علو كعبه في سبكها وحبكها، سواء في قصائده العمودية أو قصائد التفعيلة.

استمع إليه وهو يصف شامات في وجه حسناء (ص١٦):

وكأنها ريم يعزّ مثالُه ... إذ جاء منقوطاً كحرف التاء
أو حب توت فوق ثلج دافئ ... أو فلفل في الغابة البيضاء
شامات من أهوى جمال خالص ... لم تأت عن عرض ولا من داء

أو انظر في قوله عن أمية الفكر (ص٤٥):

ومرتجي الخيرِ من علْم بلا خُلُق ... كمرتجي الغيث من أُفْق بلا دِيَم
وللكتاب يدٌ في نَشْر مَعْرفةٍ ... فَهُوَ الخطيبُ الذي يَحْكي بغير فَم
وهو الصديقُ الذي لم يرجُ منفعة ... مما يقدم للإنسان من نعَم

إنها قدرة بنية في تطويع كلمات اللغة لإيراد المعنى الذي يحوك في نفس الشاعر؛ ليخرج إلى الناس في شكل حكمة أو نظرة شاعر.

ولقد يلفت انتباهك طول نفس الشاعر في نظم القصائد الطويلة التي قد تصل إلى الخمسين بيتاً، كلها من نسق لغوي، جزل السبك والحبك، كما نرى في قصيدته «نداء الأقصى» (ص٦٠) أو قصيدته «أحب البنفسج» (ص٨٢) أو «يوم المرور» (ص٣٤).

الموسيقى: وآخر هذه العناصر ما يمكن أن يقف عنده القارئ من ملاحظات حول الأوزان الشعرية.

وربما يلاحظ القارئ لهذه القصائد أنها قد أفرغت في أوزان وأشكال شعرية غنائية من بحور البسيط والمتقارب والهزج والرمل في الشعر العمودي وشعر التفعيلة. ولقد رقّت هذه الأوزان حتى اقتربت من لغة الأناشيد أو لغة التلحين والغناء. فهو مرة في قصيدة «حياتي» (ص٤٩) يقول:

حياتي هكذا تمضي ... كمصباح بلا ومض
فمن ألم إلى ألم ... إلى ما ليس بالمرضي
ولست أحبذ الشكوى ... ولا ما قلت للعرض
فحمدا للذي يبني ... ويملك قوة النقض

أو قوله في قصيدة «مهر العروس» (ص٥١):

مسلم إني، فمن مثلي أنا ... نلت بالإسلام غايات المنى
في يدي كنزان ما مثلهما ... من له كنزان لاشك اغتنى

وفي مقطوعة بعنوان «شراع بلا زورق» (ص١١) يقول:

لم يبقَ من زورقي عين ولا أثر ... إلا الشراع فلا صارٍ ولا دُسُر
تثيره الريحُ من أفقٍ إلى أفقِ ... كما تثيرُ فؤادَ العاشقِ الفِكَرُ

نلاحظ اهتمامه بالتصريع في البيت الأول، كما نلاحظ تقارب مخارج الحروف الصوتية سَعْياً نحو ترصيع الموسيقى الشعرية الداخلية بحروف

لديه الكثير من نكهة
هاشم الرفاعي
وتغلغله إلى الوجدان

وكلمات وتراكيب تلبي المعاني العامة التي تسعى إليها موضوعات القصائد وأفكارها.

بينه وبين هاشم الرفاعي:

وبعد، فإن في هذه المجموعة الشعرية، مما يمكن أن نسميه بالأدب الإسلامي الملتزم، الكثير والكثير، مما يمكن أن يشدّ القارئ وتجري على لسانه بالترحُّم على صاحبها، الذي أثبت بها رسوخ قدمه في القدرة على التأثير، على الرغم من حداثة تجربته وقلة شهرته بين الناس، فكم بينه وبين الشاعر المصري المعاصر هاشم الرفاعي (١٩٣٥-١٩٥٩م) - يرحمه الله - من تقارب في النكهة الشعرية والقدرة على البقاء في نفس القارئ وفي وجدانه على الرغم من المدة القصيرة نسبياً التي عاشها في سماء الحياة الأدبية وأرض المجتمع الذي كان يعاني آلامه وعذاباته ويحلم بآماله وطموحاته. ولابد من عودة إلى هذه المجموعة الشعرية مرة أخرى وثالثة ورابعة من مختلف الباحثين لتتضح الصورة أكثر.

مسرحية

لبّيك اللهم لبيك

مسرحية لم تنشر من قبل

علي أحمد باكثير

المنظر:
«حول البيت العتيق وقد أوشك أن يتم بناؤه. إبراهيم وإسماعيل يعملان في ذلك مجتهدين».

إبراهيم:

- ما بالك صامتاً اليوم يا إسماعيل..؟

إسماعيل:

- إني أردد في سري ما سمعته منك: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

إبراهيم:

- قد سمع الله لنا يا بني وهو السميع المجيب، ولكن هلم نتحدث.. أو قد مللت حديثي يا إسماعيل..؟

إسماعيل:

- معاذ الله يا أبي ولكنا قد أوشكنا أن نفرغ من عملنا هذا فلو صبرنا قليلا عن الحديث حتى لا يشغلنا عن إتمامه اليوم.

إبراهيم:

- بل الحديث أعون على احتمال الجهد دون أن نشعر بالجهد. أو لا تعرف المثل الذي يقال في ذلك..؟

إسماعيل:

- بلى يا أبت.. يقولون هنا: احملني وأحملك..!!

إبراهيم:

- قول بديع في معنى المثل الذي نقوله بالشام بيد أن هذا أحف وأروع.

إسماعيل:

- لوددت يا أبي لو أحسن لغتك كما تحسنها أنت فينطلق بها لساني كما ينطلق بلغة أهالي هؤلاء..

إبراهيم:

- بل لتني أحسن لغتكم هذه فأكلمك بها، فهي أشرف وأكرم.

إسماعيل :

- أشرف وأكرم؟! كيف؟

إبراهيم :

- بهذه اللغة يا إسماعيل سينزل الله ذلك الكتاب الكريم على الرسول العظيم من ذريتك فتكون لسان المهتدين به في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة .

إسماعيل :

- «فرحا» إذن فلو أقمت عندنا يا أبي فتتعلمها .

إبراهيم :

- وأنى لي ذلك يا بني؟ لقد أمرت بأن تكون هذه هجرة لله ، فلو أقمت معك ما كانت كذلك . . ويحك يا إسماعيل لو كان ذلك لي لقد كانت هاجر أمك أحرى منك بأن أقيم معها . . «تخالط صوته رقة» وألا أدعها تموت هنا وحدها دون أن تراني . .

إسماعيل :

- لله أنت يا أبي لشد ما أطعت ربك وصبرت . .

إبراهيم :

- «يتجلد» ما أنا إلا عبد الله يا إسماعيل أؤمر فأطيع . . إن الله قد اختارك أنت أبا لتلك الأمة العظيمة ولم يختر لي .

إسماعيل :

- لكنك أبي فأنت إذن أبوها .

إبراهيم :

- صدقت ولكن الله قد شاء أن يجعلني أبا الملة كلها ، ملة التوحيد والإسلام مهما تخلف أنسابها وألوانها وديارها ولم يجعلني أبا لأمة دون أمة .

إسماعيل :

بخ بخ لك يا خليل الرحمن !!

«تقبل امرأة إسماعيل»

إبراهيم :

- مرحبا مرحبا بزوج البعل الكريم وأم الشعب العظيم . .

هي :

- الفضل فضلك باعماه . أنا هي العتبة وأنت الذي بتثبيتها أوصيت . .

إبراهيم :

- بل الفضل فضلك يا بنتاه . . إذ وجدتك شكورا صبورا فكنت جديرة أن تلدي ذلك الشعب . .

إسماعيل :

- «كأنه لا يريد أن تشغلها امرأته عن عملها» هل من حاجة أقضيها لك؟

هي :

- لا حاجة إلا أن إخوتي وأبناء عمومتي هؤلاء مازالوا يلحون علي لتأذنا لهم فيعينوكما على رفع هذه البنية .

إسماعيل :

- لقد قلنا لهم من أول يوم إن هذا أمر الله سبحانه وتعالى لنفذه كما أمر . .

إبراهيم :

- أجل فاعتذري لهم واشكريهم فكأنْ قد أعانونا محمودين .

هي :

- لم يشاءوا أن يقتنعوا بذلك وظلوا يظنون أنكما ما امتنعتما إلا كراهية أن تحملاهم رهقا ، وإنهم لفتيان أشداء وإنهم ليحبون إسماعيل وأباه ويحز في صدورهم أن يرفض الضيف الكريم منهم التكرمة .

إسماعيل :

- فقولي لهم إن البنية قد أوشكت أن تتم . . ألا ترين؟

هي :

- ذلك أحرى أن تأذنا هم اليوم فتطيب نفوسهم

عندما أخبر الخليل إبراهيم زوجه أن الله أمره بتركها وابنها، اطمأنت وقالت: لن يضيعنا الله

إسماعيل :

- ماذا ترى يا أبي؟

إبراهيم :

- لا أدري والله ، نريد أن نطيع أمر ربنا ولا نحب أن نسيئ إلى قوم كرام محسنين . .

إسماعيل :

- أمر ربنا إذن أجدر أن نرعاه . ارجعي إليهم فقولي . . . .

إبراهيم :

- بل رويدك . . حدثيهم بحديث الفداء لعلهم يقتنعون بأن أمر الله لا هوادة فيه . . ألم تحدثها بذلك يا إسماعيل؟

هي :

- بلى باعماه . . إذ رأيت في المنام أنك تذبح ابنك فعرفت أن تنفذ أمر الله لولا أن فداه الله بذبح عظيم

إبراهيم :

- أجل أجل هو ذاك .

هي :

- آه . . لولا ذلك الفداء ما فزنا بك يا إسماعيل .

إبراهيم :

- فلتحدثي به فتيان قومك ولتقولي لهم إن هذا الأمر مثل ذاك .

هي :

- «فرحة» الآن يا سيدي أستطيع أن أقنعهم .

إسماعيل :

- قولي لهم : حسبنا فضلاً منهم أنهم يعطوننا من صيدهم منذ شغلت أنا عن الصيد .

هي :

- «في دلال» لا يا إسماعيل . . هذا وحده غير مقنع . . سأمضي الساعة لإقناعهم ثم أعود إليكما بالغداء .

إسماعيل :

- أخّري غداءنا حتى نفرغ من عملنا فما بقي منه إلا قليل .

هي :

- الضيف هو الآمر يا إسماعيل .

إبراهيم :

- كلا ما أنا بضيف يا بنيتي ولكني جعت وتعبت .

هي :

- إذن فقد أمرت . . «تخرج»

إبراهيم :

- «معجبا» ما أذكاها وأنجبها إن فيها لمشابه من هاجر .

إسماعيل :

- «يضحك» ها الله . لقد شغلتنا عن العمل .

إبراهيم :

- «يقف عن العمل» دعنا نستريح قليلا يا بني .

إسماعيل :

- أنا ما جعت بعد يا أبي ولا تعبت . . ما بقي غير هذا الصف الواحد من المدر ثم نستريح . .

إبراهيم :

- ذلك أحرى أن نستريح الآن .

إسماعيل :

- سأقرب بعض الحجارة ريثما تعود زوجي بالغداء .

إبراهيم :

- أتعصي أباك يا إسماعيل ؟

إسماعيل :

- «يلقي كل ما بيده» معاذ الله يا خليل الله . . إني سامع ومطيع .

إبراهيم :

- هلم نجلس فوق تلك الصخرة العالية .

«يرقبان الصخرة ثم يجلسان»

إبراهيم :

- «ينظر إلى خيام الجرهميين» ما شاء الله . . هذه أخبية أحمائك من جرهم . . الحمد لله إذ استجاب دعوتي فجعل أفئدة من الناس تهوي إليكم .

إسماعيل :

- أجل يا أبت . . كل يوم يطنب بيننا أهل خباء جديد .

إبراهيم :

- بارك الله في زمزم وبارك على صاحبتها الصديقة المصرية أم إسماعيل وأم السيد المختار من ولد إسماعيل .

إسماعيل :

- «تندى عيناه بالدمع» ليتها يا أبي تشهد هذا اليوم .

إبراهيم :

- «يتجلد» ما عند الله خير لها وأبقى يا بني . . «يتنهد» آه . . ما أسرع كرور السنين . . لكأنما كان ذلك أمس إذ بلغت بكما هذا المكان فأنزلتكما به وأنت بعد رضيع لم تفطم ، وليس به يومئذ ماء ولا أنيس وما معكما غير جراب تمر وسقاء ماء . . فلما أردت المضى صاحت بي أمك : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فوقفت حزيناً لا أحير جوابا ، فلما رأت ذلك مني قالت : آلله أمرك بهذا؟ قلت نعم . . قالت : إذن لا يضيّعنا فامض حيث شئت . . فانطلقت يا بني أريها أني جلد لئلا يحزنها حزني حتى إذا كنت عند تلك الثنية حيث لا تراني عينها استقبلت هذا البيت بوجهي ودعوت الله لها ولك تلك الدعوة .

عندما شرّف الله إبراهيم برفع البيت وتطهيره للعابدين والركع السجود

إسماعيل :

- هي حدثتني أنها كانت يومئذ تخشى عليّ وعلى نفسها سباع الوحش وسباع الإنس . فلما قلت أنت لها إنه أمر الله سكنت واطمأنت .

إبراهيم :

- أجل يا بني . . الله أعلم حيث اختار . لولا امرأة أخرى قيل ذلك يومئذ ما آمنت ولا اطمأنت . . «يتنهد» إن لله يا بني لحكمة في كل شيء . . أهم سارة خالتك أن تغار منك ومن أمك ليكون سببا لعمارة بيته هذا العتيق وليجعل لي ولك شرف بنائه وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .

«تعود امرأة إسماعيل تحمل مكتلا وسقاء»

هي :

- ألا تنزلان لغدائكما أم أصعد إليكما به؟

إبراهيم :

- انزل يا بني فخذه منها .

«ينزل إسماعيل فيأخذ المكتل والسقاء منها ويصعد»

إبراهيم :

- ماذا صنع الفتيان يا بنتاه . . اقتنعوا؟

هي :

- نعم ياعماه وطابت نفوسهم .

إبراهيم :

- الحمد لله . .

هي :

- إذا شئتما مزيداً من هذا الشواء فعندنا المزيد .

إبراهيم :

- بارك الله فيك .

هي :

«باسمة» يا أم الشعب العظيم . . «تنصرف»

«يضحك إبراهيم و إسماعيل»

إبراهيم :

- بسم الله الرحمن الرحيم «يأخذ في الأكل»

إسماعيل :

- بسم الله الرحمن الرحيم «يأكل في غير شهية كمن شغل فكره بشيء»

إبراهيم :

- ما خطبك يا بني؟ لم يعجبك هذا الشواء الطيب؟

إسماعيل :

- بلى يا أبت إنه لأفضل ما عندنا من الطعام .

إبراهيم :

- فمالي أراك لا تأكل بشهية مثلي؟ أي شيء يشغل بالك؟

إسماعيل :

- حتى تفرغ من طعامك كيلا أشغلك عنه .

إبراهيم :

- بل حدثني الآن . . إن الحديث على الطعام لمستحب .

إسماعيل :

- سمعتك تذكر سارة خالتي وحكمة الله في مهاجرتك بي وبأمي .

إبراهيم :

- أجل هنا انقطع حديثي معك آنفاً . .

إسماعيل :

- فهل لي أن أستزيدك علماً؟

إبراهيم :

- أجل يا بنيّ الحبيب، سلني ما تشاء .

إسماعيل :

- لم اختار الله هذا الوادي القفر ليكون دار هجرتنا أنا وأمي؟

إبراهيم :

- ويحك يا بني . . لمكان بيته المحرم هذا .

إسماعيل :

- وفيم جعل بيته المحرم هنا في هذا المكان الجديب؟

إبراهيم :

- ويحك أضقت ذرعاً بالعيش هنا يا إسماعيل؟

إسماعيل :

- كلا يا أبي . . إني لأحب هذا الربع ولا أعدل به جنات الأرض . . وحسبي أن أمي فيه عاشت وبه دفنت وأنها رأت من الآيات يوم مقدمها ما جعلها تنعم بالاً وتَقَرُّ به عيناً .

إبراهيم :

- أجل إنها لآيات بينات أكرمها الله بها ثم فضلها على نساء العالمين، إذ جعل آثارها ومواطئ أقدامها مناسك يؤديها حجاج بيته إلى يوم القيامة .

إسماعيل :

- ولكني أشتهي بعد يا أبي أن أعرف الحكمة في اختيار هذه البقعة الجدباء من دون بقاع الأرض .

إبراهيم :

- ويحك يا بني ألم أخبرك غير مرة أن الله قد بشرني أنه يبعث هنا رسولا عظيما من ولدك يكون خاتماً لرسله إذ يضع ميزان الحق على الأرض فلا يرتفع عنها حتى تقوم الساعة .

إسماعيل :

- بلى يا أبي ولكن لم هذا المكان الجدب لذلك الرسول العظيم؟

إبراهيم :

- أي بني إن الله لم يوح إلى بشيء في ذلك . . ولكن لعله جلت حكمته قد قضى في سابق علمه أن يصون هذه البذرة الطيبة هنا في معزل عن عواصم المشركين وملاحم الجبارين حتى يأتي ذلك اليوم الموعود

إسماعيل :

- هذا حسن يا أبي ولكن إذا ظهر ذلك الرسول العظيم في هذا الموضع القفر فلن يكون المهتدون به إلا قلة من الناس .

إبراهيم :

- مهلا يا بني لقد نبهتني بسؤالك هذا إلى حكمة أخرى لله والله أعلم وأحكم .

إسماعيل :

- ما هي يا أبي؟

إبراهيم :

- كيما يتيح الله لتلك الأمة التي يبعث بين ظهرانيها ذلك الرسول ، فتهتدي به أن تُفيض من هذه البقعة فتنساح شرقاً وغرباً إلى حيث تنشر رسالته ودينه في مشارب الزرع والضرع ومساقي الأنهار ومساقط الأمطار من ممالك الأرض وأممها جرياً في ذلك على سنته التي لا تتبدل فيكون لتلك الأمة ملك العالم وخير الدنيا والآخرة .

إسماعيل :

- «يتهلل وجهه بشراً» جزاك الله خيراً يا أبي الآن اطمأن قلبي .

إبراهيم :

- «يبتسم» فهيا إذن وأكلني ، فإني لا أستطيب الأكل وحدي .

إسماعيل :

- حبا يا خليل الرحمن وكرامة «يأكل بنفس طيبة» عسى ألا تؤاخذني فيما أخحت عليك وأحفيت بالسؤال .

إبراهيم :

- كلا . . لقد سرني هذا منك . . أنا أيضا كنت في شبابي طلعة مثلك . . حتى لقد بلغ بي ذلك أن سألت رب العزة أن يريني كيف يحيي الموتى ، فقال لي : «أولم تؤمن؟ قلت بلى! ولكن ليطمئن قلبي» .

إسماعيل :

- فأراك ربك آية الطير الأربعة .

إبراهيم :

- «متهللا» سمعتها يا بني؟

إسماعيل :

- من لسان أمي .

إبراهيم :

أجل لقد كانت حافظة واعية .

إسماعيل :

كل يا أبت . . كل .

إبراهيم :

- الحمد لله رب العالمين . . أتم أنت غداءك .

إسماعيل :

الحمد لله رب العالمين .

إبراهيم :

- «ينهض» حيّ الآن على العمل .

«ينزلان من الصخرة ويستأنفان عملهما في بناء البيت»

إبراهيم :

- ناولني هذا الذي بيدك .

إسماعيل :

- بل دعني يا أبي أرفعه بنفسي إنه حجر ثقيل .

إبراهيم :

- «مبتسماً» هذا دأبك معي يا بني ، أو تريد أن تستأثر بالثواب من دوني؟

إسماعيل :

يا أبت إن الثواب كله لك ، فما أنا إلا ابنك وعملك الصالح إن شاء الله .

إبراهيم :

- أجل ولكنا أمرنا أن نبني البيت معاً لا أن تبنيه أنت وحدك .

إسماعيل :

- يا أبتاه لقد أمرك الله أن تستعين بي وهو سبحانه يعلم أنك شيخ كبير وأني أنا شاب جلد .

إبراهيم :

- «يضحك» صدقت يا بني . . والله ما رأت عيني في بلاد الشام ولا أرض الكلدان فتى أجلد ولا أمتن منك . . لله هذه الأرض التي ربتك فشدت لحمك وصلبت عظمك «ثم في رقة» ولله در ابنة النيل تلك التي أرضعتك .

إسماعيل :

«فرحا» انظر يا أبي لقد فرغنا من بناء البيت ونحن لا نشعر .

إبراهيم :

- الحمد لله ما بقي علينا إلا أن نختمه بهذا العلم .

إسماعيل :

- ما هذا الحجر الأسود الذي جئت به؟

إبراهيم :

- لتثبته . . في هذا الركن ليكون للناس علما يبتدئون منه الطواف .

«يساعده إسماعيل في تثبيت الحجر الأسود»

إبراهيم :

- «يستلمه ويقبله» طوبى لك من حجر ، ليستلمنك يوما حبيب الرحمن وليقبلنك .

إسماعيل :

حبيب الرحمن؟!

إبراهيم :

ابنك المختار يا إسماعيل . . هذا من آلفائه . . استلمه وضع شفتيك حيث يضع شفتيه .

إسماعيل :

- «يستلم الحجر ويقبله» ابني المختار . . حبيب الرحمن؟

«يسمع خفق لطيف بين السماء والأرض»

إبراهيم :

- سبوح قدوس .

إسماعيل :

- يا أبت . . ما هذا؟

إبراهيم :

- هذا الروح الأمين يابني .

إسماعيل :

- «متمتما» جبريل ؟!

جبريل :

«يسمع صوته» يا إبراهيم . . رب العزة أمرني أن أقرأ عليك السلام .

إبراهيم :

- «مبتهلا» اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ربنا وتعاليت ياذا الجلال والإكرام .

جبريل :

- وأن أبلغك أنه قد رضي عنك وعن ابنك إسماعيل فيما بنيتما وطهرتما من بيته هذا للطائفين والعاكفين والركع السجود .

إبراهيم :

- لك الحمد يا رب الحمد ، ما كنا لنرفع قواعده وحدنا لولا عونك وخفي قدرتك .

جبريل :

- وقد أذن لك أن تدعوه ما تشاء ليستجيب لك .

إبراهيم :

- «يرفع يديه مبتهلا» رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

جبريل :

- ومن كفر؟

إبراهيم :

- ومن كفر؟

جبريل :

- يقول ربك رب العزة : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . أتم دعاءك يا إبراهيم .

إبراهيم :

- ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

إسماعيل :

- آمين .

إبراهيم :

- آمين يارب العالمين .

جبريل :

- إن ربك يأمرك أن تؤذّن بالحج إلى بيته في الخلق أجمعين .

إبراهيم :

- أي جبريل أي خلق هنا؟ إنما هي أبيات قلائل .

جبريل :

- أذن في الناس عامة . في البشر كافة . الخلائق أجمع .

إبراهيم :

- وما يبلغ صوتي يا جبريل ؟

جبريل :

- ما عليك إلا أن تؤذن وعليه عز وجل البلاغ . فليسمعن صوتك جميع ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء من يومك هذا إلى يوم القيامة .

إبراهيم :

- سبّوح قدوس .

جبريل :

- فليلبين نداءك كل من آمن ممن كتب الله له حج بيته مهما تكن داره في المشرق أو المغرب إلى يوم القيامة ، وليعجزن عن التلبية كل من لم يكتب الله له الحج وإن يكن مقيماً في هذا الوادي على غلوة سهم من البيت العتيق .

إبراهيم :

- سبوح قدوس .

جبريل :

- ارق ذلك الشَّرَف يا إبراهيم فأذن أذانك منه .

إبراهيم :

- أعني يا بني لأرقى هذا الشرف «يعينه إسماعيل» .

جبريل :

- أذّن . . الآن .

إبراهيم :

«بأعلى صوته» أيها الناس . . إن الله تبارك وتعالى قد كتب عليكم الحج إلى هذا البيت العتيق . .

«تتجاوب الأصوات مدوية من قريب وبعيد بكلمات شتى ولهجات متباينة»

إسماعيل :

- يا أبت ما هذا الدوي؟

إبراهيم :

- ما هذا يا جبريل . . أهذه هي . . . . .

جبريل :

- أصوات أجيال البشر التي كتب الله لها حج بيته العتيق .

إسماعيل :

- وماذا تقول يا أبت تلك الأصوات؟

إبراهيم :

- ماذا تقول الأصوات يا جبريل؟

جبريل :

- تقول بشتى لغاتها ومختلف ألسنتها في المشارق والمغارب «لبيك اللهم لبيك» .

عودة المغترب

د. عودة الله القيسي

أدهشه منظر عمّان من الجو. غادرها قبل خمسة عشر عامًا وهي مدينة مكتنزة على تلالها السبعة، ويعود إليها الآن وقد ترامت أطرافها فسبحت على الحقول المجاورة وصعدت سفوح التلال وتربعت على قممها. من الغرب ارتبطت بمدينة صويلح، ومن الشرق زحفت في الصحراء، ومن الشمال خالطت مدينة الرصيفة، ومن الجنوب اقتحمت حمى قرية الطيبة.

ولاح له المطار.. بناء ضخم ينهض على طرف الصحراء كأنه قلعة في تلك الصحراء، لصدّ غارات الأعداء عن المدن والقرى.

قال له جاره في الكرسي في الطائرة:

- هذا هو المطار.

أجابه منكرًا.

- المطار لم يكن في هذه الجهة، ولم يكن بهذه الضخامة.

أجابه جاره وهو يبتسم:

- هذا المطار الجديد، المطار القديم أصبح مخصصًا للرحلات العسكرية وبعض المهمات الخاصة.

قال كالمعتذر:

- نسيت.. لقد كتبت لي زوجتي قبل عشر سنوات تخبرني ـ مما أخبرتني ـ أن مطارًا ضخمًا حديثًا قد بني في جنوب عمّان.

حطت الطائرة، أجريت معاملات ختم الجوازات بسرعة، خرج القادمون إلى الصالة.

أخذ سعيد يمدّ بصره يترقب أسرته.. بعد تردد أقبلت عليه سيدة في الخامسة والأربعين، حدّق فيها عرفها وأنكرها.. هي زوجته أم «جديد» لكنها تغيرت، جبينها بدا مخططًا بخطوط جلدية خفيفة، عيناها خف بريقهما، خلف الخدّ تغضّن يفصل بينه وبين مسيل الخدّ.. (لشد ما تغيّرت يا أم جديد)..

سلّمت عليه، بكُنيته:

- كيف حالك يا أبا جديد..

صافحته، ولكنها خجلت أن ترحب به بأكثر من ذلك.

- كيف حالك يا أم جديد؟ الحمد لله الذي جمع بيننا بعد طول فراق.

ابتسمت فبدت حزوز على أطراف فمها، وهي تغض من بصرها:

- يستأهل الله الحمد.

وتقدم بعدها إليه شاب فارع الطول ذو لحية مستديرة.. تحيط بوجه كأنه صفحة بيضاء، قالت أم جديد:

- هذا جديد يا أبا جديد..

صافحه.. انحنى الشاب عليه عندما همّ بتبادل القبلات مع أبيه، (ما شاء الله.. هذا «جديد» الذي تركته طفلا في العاشرة، ها هو رجل ملء السمع والبصر، أطول مني، أشد بياضًا مني، يبدو أنه ملتزم بالإسلام.. مثلي).

وتقدمت بعده فتاة ربعة شقراء قد غطت شعرها بخمار منقط، يغلب على ألوانه اللون الأخضر كأنها أم جديد عندما خطبها قبل خمسة وعشرين عامًا، غير أنها أكثر صقلا من أم جديد.

قالت أم جديد :

ـ ابنتك سناء . .

سرّ بها، صافحها، وضعت يدها على رقبته، وقبلته بلهفة على وجنتيه وعلى الجبين . . لشدّ ما تمنيت يا أبي أن تكون إلى جانبي وأنا في الجامعة، كنت أحتاج إلى علمك في الفيزياء، وهي المادة التي درستها ـ أنا ـ كما درستها أنت . . ابتسم، وأشار بيده وقال :

«تجري الرياح بما لا تشتهي السفن».

بل بما لا تشتهي الأقمار . . مثلك . .

وكانت تقف خلف سناء فتاة برونزية اللون، تلبس خمارًا بنيًا، تفرع سناء طولاً . .

قدمتها الأم فقالت :

ـ ابنتك سوسن، في السنة الأولى في الجامعة.

صافحته سوسن، ولاحظ وهي تقبل وجنته أنها تطاوله بل هي أطول منه قليلاً . .

التفت الأسرة حول الوالد، أما هو فقد أدار عينيه . . هنا وهناك، فترقرقت في عينيه دمعتان، سرعان ما جفّفهما . . نظرت الأم إليه فأخذت الدموع تنهمر من عينيها . . أحاط بها الأولاد، وخففوا من لوعتها في هذه الحالة . .

ـ أهكذا نستقبل أبانا يا أماه ؟!

احتاجت الأم إلى دقيقتين حتى أفرغت شحنة الحزن في نفسها . . قال لها الوالد :

ـ وبلال كيف صحته ؟

قالت وهي تغمض عينيها تحاشيًا لأن تلتقي عيناها بعينه :

ـ لا بأس، أصبح شابا، في السابعة عشرة، كما تعرف، لقد سافرت وعمره سنتان، ولكنه ضاوي الأطراف.

ـ ومن يعتني به ؟

ـ كنا جميعًا نعتني به، ولكن عندما بلغ الرابعة عشرة، وأصبح شابًا . . لم يعد من اللائق أن تتابع خدمته أخته.

ـ هذا صحيح . .

قال جديد :

ـ الحمد لله يا أبي على كل حال . . لعل الله قد أتى بأخي بلال مشلولاً ليحط به من ذنوبنا. إن خدمة من يحتاجون إلى خدمة يكتب بها للمرء حسنات، وتحط عنه سيئات . . لا تيأس يا أبي، الحمد لله . . سرّ عنك يا أبي . .

في الطريق، بعد اليادودة إلى صويلح حيث تقيم الأسرة، اندهش الأب من مناظر الدارات والقصور التي تنهض على جانبي الطريق، وعلّق :

ـ تغيرت الأردن في هذه السنين التي غبت فيها عنها . . تدفقت الأموال في فترة الطفرة، ما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٣م. فأقام الناس الدارات والقصور. أما كان يمكن للحكومة أن تضع سقفًا للحدّ الأعلى للمبلغ الذي يقام به السكن الشخصي، حتى توفر الأموال للمشاريع العامة، لكي يقضى على البطالة ؟

نظر خالد إلى أبيه من زاوية عينه اليمنى وهو يقود السيارة، وعلّق :

ـ للأسف، الحكومات المتعاقبة أخذت بالنظام الرأسمالي الغربي، فقاد إلى الهلاك . .

وعلّقت سناء :

ـ في الغرب، وإن أطلقوا العنان لرأس المال، غير أنهم حفظوا حقوق العمّال، لا كما في بلادنا.

وعلّقت الأم :

ـ في الحقيقة لا خلاص لبلدان العالم الثالث إلا باتباع النظام الاقتصادي الإسلامي، النظام التكافلي . . وعاد الأب يقول :

ـ بل لا خلاص للعالم كله مما يتردّى فيه من ويلات، إلا بالإسلام. طول الطريق جعل الأب يسأل الأسرة عن أحوال الجيران والأصدقاء وهم يجيبون حتى سأل عن جارهم أبي نعيم فوجم الجميع، كانوا يعرفون أنه صديق عزيز عليه . . نظر إليهم :

ـ لِمَ لا تتكلمون . .

ـ واستمر الصمت . .

قال الأب :

ـ أمات ؟صمت الجميع وأنغضوا برؤوسهم دلالة الموافقة . .

ـ وكيف مات، كان كالحديد !

ـ أصابه مرض خبيث لم يمهله إلا ثلاثة أشهر . .

. . في الدار . . أخذ الأب يقارن بين صورة العائلة المعلقة على الجدار التي التقطت قبل سفره بأسبوع، وبين ما أصبحت عليه الآن . . (الأولاد كانوا أطفالا، فأصبحوا ناضجين، وأم جديد كانت في عز الشباب فأصبحت أقرب إلى الشيخوخة منها إلى الشباب . . وأنا . . تغيرت ؟ نعم تغيرت ولكن قليلاً . .). وأحسّ أن نفسه تغص بشعورين متباعدين : هو سعيد، مسرور؛ لأن أبناءه قد أصبحوا شبانا، ولكنه مغمور بالأسى؛ لأن الأيام تحمل في طياتها التغير ﴿ كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجْهَهُ ﴾ صدق الله العظيم . . أما كبرت أم جديد؟ أما مات أبو سليم الذي كان كالحديد ؟ أما كبرت عمّان وتمددت حتى سالت على الحقول والتلال المجاورة.

مَضَى عنّي الشباب

لأبي العتاهية(*)

أَذَلَّ الْحِرْصُ وَالْطَّمَعُ الـرِّقـابـا ... وَقَـدْ يَعْفـو الْكَـريمُ إذا اسْتَرابـا
إذا اتّضَحَ الصَّـوابُ فَـلا تَـدَعْـهُ ... فَـإنَّـكَ كُلَّما ذُقْتَ الصَّـوابـا
وَجَـدْتَ لـهُ عَلى اللَّهـوَاتِ بَـرْداً ... كَبَرْدِ الماءِ حينَ صَفـا وَطـابـا
وكُلِّ سَـلامَـةٍ تَعِـدُ الْمَنـايـا ... وَكُـلِّ عِمارَةٍ تَعِـدُ الْخَرابـا
وَكُـلِّ مُمَلَّكٍ سَيَصيرُ يَـوْمـاً ... وَمـا مَلَكَتْ يَـداهُ مَعـاً تَبـابـا
أَبَتْ طَـرَفـاتُ كُـلِّ قَـريـرِ عَيْنٍ ... بِها إلاّ اضْطِـرابـاً وَانْقِـلابـا
كَأنَّ مَحاسِنَ الـدُّنْيـا سَرابٌ ... وَأَيُّ يَـدٍ تَنـاوَلَـتِ السَّرابـا
وَإنْ تَـكُ مُنْيَـةٌ عَجِلَتْ بِشَيْءٍ ... تُسَرُّ بِـهِ فَإنَّ لَها ذَهـابـا
فَيَـا عَجَبـاً تَموتُ وَأَنْـتَ تَبْني ... وَتَتَّخِـذُ الْمَصـانِعَ وَالْقِبـابـا
أَراكَ وَكُلَّما أَغْلَقْتَ بـابـاً ... مِنَ الـدُّنْيـا فَتَحْتَ عَلَيْكَ بـابـا
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ كُلَّ صَبـاحِ يَـوْمٍ ... يَـزيـدُكَ مِنْ مَنِيَّتِكَ اقْترابـا
وَحُـقَّ لِمُوقِـنٍ بِـالْمَوْتِ أَلاّ ... يُسَـوِّغَـهُ الطَّعـامَ وَلا الشَّرابـا
يُـدَبِّـرُ مـا نَـرى مَلِكٌ عَـزيـزٌ ... بِـهِ شَهِـدَتْ حَـوادِثُـهُ وَغـابـا
أَلَيْسَ اللهُ مِنْ كُـلِّ قَـريبـاً ... بَلى مِنْ حَيْثُ مـا نـودي أَجـابـا
رَأَيْتُ الـرَّوْحَ جَـذْبَ الْعَيْشِ لَمّا ... عَـرَفْتُ الْعَيْشَ مَخْضـاً وَاحْتِـلابـا
ولَسْتَ بِغـالِبِ الشَّهـوَاتِ حَتّى ... تُعِـدَّ لَهُنَّ صَبْراً واحْتِسـابـا
كَبِرْنـا أَيُّها الأَتْـرابُ حَتّى ... كَأَنّـا لَمْ نَكُـنْ حينـاً شَبـابـا
وَكُنّـا كَـالْغُصـونِ إذا تَثَنَّتْ ... مِنَ الـرَّيحانِ مـونِقَـةً رِطـابـا
إلى كَمْ طـولُ صَبْـوتِنـا بِـدارٍ ... رَأَيْتُ لَها اغْتِصـابـاً وَاسْتِـلابـا
أَلا مَـا لِلْكُهـولِ وَلِلتَّصـابي ... إذا مـا اغْتَرَّ مُكْتَهِلٌ تَصـابى
فَـزِعْتُ إلى خِضـابِ الشَّيْبِ مِنْـهُ ... وَإنَّ نُصـولَـهُ فَضَـحَ الْخِضـابـا
مَضى عَنّي الشَّبـابُ بِغَيْرِ وُدّي ... فَعِنْـدَ اللهِ أَحْتَسِـبُ الشَّبـابـا
ومَـا مِنْ غـايَـةٍ إلاّ الْمَنـايـا ... لِمَنْ خَلِقَتْ شَبِيبَتُـهُ وَشـابـا
ومَـا مِنْكَ الشَّبـابُ وَلَسْتَ مِنْـهُ ... إذا سَـأَلَتْكَ لِحْيَتُكَ الْخِضـابـا

(*) من كتاب (أبي العتاهية : أشعاره وأخباره) للدكتور شكري فيصل . ص١٩

أعظم الناس (*)

إني مخبرُك عن صاحب لي كان أعظمَ الناس في عيني، وكان رأسَ ما عظمه عندي صغرُ الدنيا في عينه.

كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثِر إذا وجد.

وكان خارجاً من سلطان فَرْجه، فلا يدعو إليه ريبةً، ولا يستخفُّ له رأياً ولا بَدَنا، وكان لا يَأْشَرُ[1] عند نِعمة، ولا يستكينُ عند مصيبة.

وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلَّم بما لا يعلم ولا يُماري[2] فيما علم.

وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة بمنفعة.

وكان أكثرَ دهره صامتاً، فإذا نطق بَذَّ[3] القائلين. وكان يُرىٰ ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً.

وكان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشارك في مِراء، ولا يُدْلي بحجَّة، حتى يَرى قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثلِه، حتى يعلمَ ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وَجَعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرْء، ولا يستشير صاحباً إلاّ من يرجو عندَه النصيحة.

وكان لا يتبرَّم، ولا يتسخَّط، ولا يتشكَّىٰ، ولا يتشهّىٰ. وكان لا ينقِم على الوليّ ولا يغفُل عن العدو، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقُوَّته. فعليكَ بهذه الأخلاق إنْ أطقتَها، ولن تُطيق، ولكنّ أخذَ القليل خيرٌ من تَرْكِ الجميع.

(*) من كتاب الأدب الكبير لابن المقفع ص ١٣٠ (طبعة دار مكتبة الحياة - بيروت)

(١) يأشر: يبطر.

(٢) يماري: يجادل.

(٣) بذّ: غلب.

ثلاث بدايات للحصار
إلى سراييفو الحزينة

شعر : محمد زيدان

(١)

لا ظل إلا ظل وجهك يا فتى
فاسترفدِ النغَم الحزين . .
وزجّج الأنهارَ . . هل تبقى على . .
برد السهول وقامة الأشجار ؟
إنك وارد عند ابتداء القصف . .
ليس تروعك الأمطار
أو وجه الغيومْ
تشتاق بُرءَ الفجر تلتمس الصلاة . .
ـ يحاصرونك ـ أنت وجه . .
الريح . . تلقي . . فوقهم
مهجًا وتسمعهم نشيدك . .
إنها هذي التخومْ !!
فاشرع بصوتك جنة الشهداء
إنك في عداد الغائبين . .
فهل تقوم ؟

(٢)

يستفتحون على عظامِك يا فتى
أرضاً ويقترحون آية ضوئك السحري
أنت مشارب فوق النجومْ
لا ماء إلا ماء وجهك
يعتريك الموت . . هل في الموت شَكٌّ
إذ تنامت صيحةُ الأسقامِ
أو شاخت على وجعٍ/ سراييفو
ستأتي مرة أخرى
وتنتشل الجياع . .
لتستفيق على مهاد الصفو . .
آيات الهمومْ

(٣)

يتربصون . .
بثوبك الفضي فانهض يا فتى
يلغون في دمك البريء
وأنت مهد حضارة . .
تسع اصطبارك . . ،
والبلاد
وديعة في مقلتيك
يسارعون إليك في نزق
ويلتحفون جلدك
لا تقوم فصاحة الأشياءِ
خلفكَ خلسةً
سيحاصرونك فاستدر
في قمة الوهج الطّري
وآية من سورة الفتح ابتداؤك
فافترش في غبطة . .
وجه السدومْ .

القدس والبوسنة مناجاةٌ لم تكتمل !

شعر / سليمان سالم السناني

غريبانِ
وايمُ الله يا أختي غريبانِ
نلوكُ الحزن أغنيةً
نرومُ الأمن أمنيةً
تشتّتنا
تُجمّعنا
تُمزّقنا
بذات النصلِ
نصل شقائنا القاني

* * *

أنا يا أختُ لا أدري
بهذا الكون ما قدْري
وما سعري
أَقَدْرُ رصاصةٍ «أسوي»؟
ألي حقٌّ بأن أهوي؟
ألي حقٌّ إذا عطشت
وجفّت نخوة النجوى
أغذّيها
وأحرقها
بذات الصوتِ
صوت بكائي الواني؟

* * *

أخي لا تبتئس إنّي
سمعت خطاب إخوانٍ
لنا قد ساءلوا عنّي
وقالوا: لن يجور الصربُ
فوق الرمل في بلدٍ
لنا فيها أخٌ يبكي
فصوتُ نحيبهِ شكوى
وأختٌ قد سباها الكفرُ
لا عرضٌ ولا مأوى
أخي من يقصدون إذن
سوى أهلي و إخواني؟

***

أُخيّةُ خفّفي اللَّوْما
كرهتُ الكُره والقوما
أعادوا نفسَ ذا التأبينِ
نفس اللفظ والفحوى
وقالوا: لن يضيع القدسُ
غير القدس لن نهوى
مضت سنةٌ
تلتها أُخْتُها الأخرى
وأُخرى خلفها تسعى
وأبنائي لهم أسرى
شكوتُ . . شكوتُ لا أحدٌ
يرقّ لهذه الشكوى
مضت سنواتٌ . . لا أدري
فقومي أزمعوا هجري
ولولا صوتك المُزري
لكنت الآن لا أدري
لذيذٌ نَكْءُ هذا الجرح
مرٌّ طعم ذي الشكوى
تُجمّعنا
تُشتتنا
تُذكّرنا
بأنّا يا ابنة المأساةِ
في الدنيا غريبانِ

صبراً سراييفو

شعر / علي فريد

كُسِر اليَرَاعُ وغُيِّب الصمصامُ ... وعَدَت علي أُسْدِ الشَّرَى الأنعامُ
واستنسر العصفورُ بينَ غُصُونِنا ... واستأسَدَتْ في أرضِنا الأغْنَامُ
ظُلَمٌ كليلٍ دَامِسٍ يَنْدى لها ... منا الجبينُ وفُرقةٌ وخِصَامُ
ومصائبٌ تنحطُّ فوق رؤوسِنا ... تترى ولا نقضٌ ولا إبْرَامُ
تقضي على الأُمم الليالي أَوْ لَهَا ... وتَزِلُّ عند قضائِها الأَقْدَامُ
وجِرَاحُ هذا العالِمِ الْتَأَمَتْ وما ... لجراح أُمّتنا الحزينةِ لأمُ
بالأمْسِ أَنْدَلُسٌ تَولَّتْ وانْقَضَى ... مُلكٌ هناك وضُيِّع الإسْلاَمُ
غالَ (الصليبُ) بها الهلالَ فلم يَعُدْ ... يمشي إليها المَجْدُ والإعْظَامُ
كم كان يغشى الشرقَ من لمحاتِها ... نورٌ عَلَى أُسِّ العُلوم يُقام
شادت (أميَّةُ) في ثَرَاها دولةً ... العلمُ فيها حَائِطٌ ودِعَامُ
كانتْ على جيد الزَّمان قلادةً ... فَهَوَتْ ولمْ يَصُن القِلاَدَ زِمَامُ
هذي (سراييفو) تئنُّ من الأَسَى ... والمسلمون عن الجِهادِ نِيامُ
كم أُهْرِقَتْ فيها الدِّمَاءُ زكيةً ... وكم اسْتبيح العِرْضُ وهو حَرَامُ
وتهدَّمَتْ شُمُّ المَساجدِ عَنْوةً ... ما عَادَ فيها للصلاةِ قِيامُ
وخَبَتْ منابرُ كنَّ نوراً للورى ... وعَفَتْ معاقلُ للعلوم تُقامُ
سفكوا الدماء وذبَّحوا جيرانَهم ... وعَدَوْا علي أُممٍ هُناك تُضامُ
سيق الرجالُ إلى السجونِ كأنَّما ... سيقَتْ إلى حَوْضِ الرَّدَى الأَغْنَامُ

السيفُ مسلـــولٌ تحَدَّرَ مَـــاؤُهُ ... والمسلمـــون فـــريسـةٌ وطَعَـــامُ
كم طَـــاعنٍ في السنِّ أتعبَـــهُ السُّرَى ... أضْحى مع الإصبـــاح وهْـــوَ حُطَـــامُ
ومحاصَرين وحـــولهم سبلُ الـــرَّدى ... قعـدوا على نـــارِ الرَّصـاصِ وقَـامُـوا
(السيفُ إن طلبـــوا الفِـــرارَ سبيلُهم ... والنَّطْعُ إن طلبـــوا القـــرارَ مقـــامُ)
يـــا رُبَّ مُـــرضَعَـــةٍ هنـــالكَ أَصْبَحَتْ ... ولها على حَـــدِّ السيـــوفِ فِطَـــامُ
وصبيَّـــةٍ هُتِكتْ وَهَـــان عفـــافُهـــا ... وطَغَى عليهـــا الـــذلُّ والإرْغَـــامُ
تبكـي وتصرخُ والأنـــــامُ مخدَّرٌ: ... يـــا مسلمـــون أَمَـــا لَكُـمْ أرْحَـــامُ
يـــا مجلسَ (الخَوْفِ) الـــذي دُفِنَتْ بِـــهِ ... آمـــالُنـــا واغْتِيلـتِ الأَحْـــلاَمُ
أيْنَ القـــراراتُ الفِصَـــاحُ وَمَـــا بِهَا ... إلا حـــديثٌ بَـــاردٌ وَكَـــلاَمُ
أَصْبَحْتَ في جسـدِ العـروبـةِ خِنْجَـراً ... شَقِيَتْ بـــه مصرٌ وضَـــاعَ الشَّـــامُ
تـدْعُـو إلى السِّلْمِ المُخَضَّب بالـدِّمَـا ... والسِّلْـمُ فيـــه مَحَبَّـــةٌ وَوِئَامُ
نصَّبْتَ نَفْسَـكَ حَـــاكِماً ومُشَرِّعـــاً ... بئسَ الحكـــومـــةُ تِلْـكَ والأَحْكَـــامُ
صبراً سراييفـــــو فكـــلُّ مُمَلَّـكٍ ... يَفْنَـى ويبقـى المَالِـكُ العَـــــلاَّمُ
البغي يُفني نفسَـــه بســـلاحِـــهِ ... يـــومـــاً وتُنْسَـى في الـــوَرى الآلامُ
زعمـــوك أرضـــاً للصليبِ وأهلِـــه ... فمشـى إليكِ الظلـمُ والإجْـــــرَامُ
لـــو كـان حقًّـــا مـا افتروْهُ لأحْجَمـوا ... عن هتك أعْـراضِ النساء وصَـامُـوا
في ذمَّـــةِ الـــرحمنِ سبعـــةُ أَشْهُـــرٍ ... (طَـــالَتْ عليكِ فكلُّ يـــومٍ عَـــامُ)
بـــــالصبرِ تَلْتَـــــامُ الجراحُ وإنَّمَا ... جُـــرْحُ الكَـــرَامـــةِ فيكِ لا يَلْتَـــامُ
يـــا مسلماً فتح الفتـــوح جـــلائلاً ... أين البطـــولـــةُ فيكَ والإقْـــدَامُ
داعي الجهـــاد أتـى ينـــادي جَمْعَنَـــا ... والصَّـــدُّ عن دَاعِـي الجِهـــادِ حَـــرَامُ
عِـــرْضُ الحرائِرِ يستغيثُ ويَشْتَكي ... والـــردُّ من كـلِّ الـــوَرى إحْجَـــامُ
لهفي عليهـــا غضبـــةً مُضَريـــةً ... تَجْري الـــدِّمَـــاءُ لَهَا ويُفْلَـقُ هَـــامُ
السلم يُجلبُ بـــالمهنَّـــد مُصْلَتـــاً ... لا الكتُـبِ تجلبُـــه ولا الأَقْـــلاَمُ
فـــاضربْ بـــهِ في العـــالمين فإنَّـــهُ ... مـــا فـــازَ من ظَفِـــرَتْ بـــه الأيَّـــامُ

تعليق من المحرر

قصيدتان طافرتان بالغضب!

نقدم في هذا العدد من «مجلة الأدب الإسلامي» قصيدتين للأقلام الواعدة، ونرى أن صاحبيها لهما مستقبل كبير في عالم الشعر، إذا أمسكا جمرة الشعر، وابتعدا عن النماذج السابقة، وحاولا أن تكون لهما خصوصية في الإبداع.

● **صبراً سرابيفو، لعلي محمد فريد:**

قرأت قصائد عديدة مخطوطة من قبل لعلي محمد فريد، كما طالعت له القصائد القليلة التي نشرها في صحيفة «المسائية» السعودية، ومجلة «المجتمع» الكويتية، وصحيفة «مرآة الجامعة» التي تصدرها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وعلي محمد فريد في بداية تشكُّله الشعري، يتخذ من النماذج الجهيرة في الشعر العربي نموذجاً له، يحتذي به. ولذا فلغته جزلة، صارمة، تقف على أساس متين من التراثية التي ترى أن للشعر ألفاظا «جزلة» يجب عليه أن يحافظ عليها. ونجد في قصيدته من هذه الألفاظ في الأبيات الخمسة الأولى فحسب: الصمصام، أسد الشرى، طغى، ظلام، استنسر، استأسدت، ظلم كليل دامس، مصائب، حروف.... إلخ.

إن انتماء الشاعر لأمته، وإحساسه الفادح بما يصيبها في راهنها، وقدرته على التشكيل بالصورة في كثير من أجزاء هذا النص، تشير إلى بداية آملة لشاعر موهوب، تنتظره الساحة الإسلامية.

● **القدس والبوسنة: مناجاة لم تكتمل، لسليمان سالم السناني:**

هذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها لسليمان السناني، وهو اختار شعر التفعيلة إطاراً لقصيدته، التي صاغها على تفعيلة بحر الوافر «مفاعَلَتُن» (بالتحريك) و«مفاعلُتُن» أحيانا (بالتسكين)، وقد استطاع أن يوظف هذه الموسيقا الوافرة توظيفا جيداً في خدمة نصّه، الذي يقترِبُ من البوْح الرومانسي. وتقترب القصيدة في بعض مقاطعها من صياغة تقليدية لمجزوء الوافر، خصوصا في المقطع الثالث الذي يبدأ بقوله:

أُخيَّـــةُ خَفِّفي اللـــومـــا ... كـــرهت الكُـــرْهَ والقـــوْمـــا
أعـــادوا نفس ذا التأبيـــ ... ـــن، نفس اللفظ والفحـــوى
وقـــالـــوا: لـن يضيع القـــد ... ـــسُ، غيرَ القـــدسِ لـن نهوى

هذا الانضباط الموسيقي يكسب القصيدة ثراءً موسيقياً، لكن الشاعر لم يفد منه درامياً في تطوير خط المفارقة بين الواقع الكئيب المحاصر للمسلمين، والهمّة القعساء المبتغاة لهذا الجسد الإسلامي المترامي شرقاً وغرباً!

. . . . .

وتبقى القصيدتان - بعد ذلك - إشارةً لواقع الإبداع الإسلامي الذي لا ينفصِلُ عن هموم الأمة، ولقدرة الأمة على إنجاب المبدعين الذين يحملون راية الإبداع الإسلامي جيلاً وراء جيل.

قصة قصيرة

نهاية البداية

فاروق حسّان السيد

في اللحظة التي طرق فيها الباب، اكتنفه اعتقاد جازم بأنها سوف تعنفه. ولم يكن ذلك الاعتقاد وليد ظروف طارئة، بل كانت تلك هي عادتها كل مساء. فما إن تفتح له الباب وتستقر قدماه على بلاط الصالة حتى تبدأ نوبة اللوم والتقريع. وكان دائما يتجاوز عن كل الإهانات، ويظل في مكانه دون حركة إلا النظر إلى مقدمة حذائه القديم.

ذات مرة قال لها إنه (سيحاول) الإقلاع عن المخدرات، بيد أن تلك العبارة كانت تفتقر إلى الصدق، رغم أنه كان يقنع نفسه دائما بأن كل شيء سيكون في يوم ما على ما يرام، وسيأتي الوقت الذي يقول لها رافع الرأس:

- لقد انتهى كل شيء ولا داعي للمزيد من التفكير فيه.

كان ذلك هو حلمه المستحيل. فهو يدرك بصورة حادة أن المخدر قد تمكن منه إلى الحد الذي أصبحت معه حياته كلها معلقة بمجرد (شمة) واحدة.

مرة ثانية طرق الباب وهو يشعر بالانقباض. لم يكن للمخدر الذي يسري في جسده كله القدرة على التقليل من انقباضه. لقد لازمه ذلك الإحساس منذ الصباح وقبل أن يحصل على النقود التي اشترى بها ذلك السم. ثم ما لبث أن فارقه، وها هو يعاوده بعد أن طرق الباب مرة ثانية وثالثة دون أن يسمع وقع أقدامها وهي تقترب خلف الباب المغلق.

ولأول مرة يلاحظ من خلال زجاج الباب أن شقته مظلمة وأن مصباح الصالة مطفأ على غير العادة. ورفع حاجبيه في محاولة صادقة للفهم، ثم نظر إلى السلم ليتأكد من أن المخدر لم يغلبه ويجعله يطرق باب شقة أخرى.

وشعر بالحيرة من كل ما يحيط به. ترى: هل حل اليأس بالزوجة التعسة فآثرت الرحيل؟، وماذا عن الابن.. ابنه.. ذلك الشيء الشاحب الذي لم يتجاوز السنوات الخمس والذي يبدو كزهرة ترتعد.... هل...

وحملت إليه تلك التساؤلات صداعاً شديداً، وأحس بأن شيئاً غامضاً - لكنه شديد الإيلام - يوشك أن يتم ويتحقق كلما مضى الوقت.

وعندما مد يده ليطرق الباب في محاولة أخيرة يائسة، شق السكون صرير باب مجاور يفتح، وبرزت منه عجوز مرهقة، سرعان ما انثال الكلام من بين أسنانها حتى أغرق المكان.

وبعينين خابيتين كان ينظر إلى التجويف الذي خرجت منه الحكاية، والتي كانت تثير الهلع والوجوم. ذلك؛ لأنها خلت من أي شعاع للشمس، فقد حدث كل شيء في شارع كئيب. ولم يكن في وسع المرء أن يجد أية شخصية مبتسمة.

كم من الوقت ظلت العجوز تقذف بالكلام الذي اخترق الأذنين وترك حفراً عميقة في القلب؟!.. إنه لا يستطيع التحديد، فالساعة التي كانت تزين معصمه ذات يوم باعها مع الكثير الذي باع منذ فصل من عمله.

لكن المؤكد هو أن أحداً لو رآه في تلك اللحظة وقد انحنى رأسه، وتشابكت أصابعه فوق بطنه لظن أنه يصلي، لكنه كان... يبكي.

وجمعت العجوز أطراف شالها حول جسدها، وعندما أغلقت بابها خلفها شعر كأنه يسقط في قاع هوة بلا قرار، وهو في غمارها يهتز، يذوب، يتلاشى.

وفي آلية استدار، وتخطت قدماه الحفر المنتشرة على السلم بصورة آلية أوجبتها العادة. وصفعه التيار البارد وهو يترنح أمام الباب الخارجي، بيد أنه كان واثقا من أن أحدا لا يلحظه.

وتبين وهو يسير أن حركته لم تعد دقيقة محكمة ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليه منذ أن أحاطت بعنقه أنشوطة الإدمان. ولم يعر الأمر اهتماما فليس للجسد أية أهمية ما دام ذهنه صافيا، يستوعب بشكل مستغرب كل أحداث الظهيرة.

نعم.. إنه يذكر أنهم سألوه:

- هل كنت موجوداً لحظة الحادث؟

بالضبط.. كان ذلك هو نص السؤال الذي وجه إليه. والشيء الوحيد الذي كان مزعجا في تلك اللحظة هو شعوره المخيف بحاجته إلى المخدر.

- نعم.. كنت أجلس بجوار السائق.

وتتابعت الصور.. وكان من السهل عليه ترتيبها حتى أصبحت شيئا منظوراً، إلا أن أبرزها كانت صورة الرجل السمين ذي الملابس الرسمية.

- جاء في أقوال السائق أن...

وتوالت الأسئلة...

وكان واضحا أن الأمر سيكون غاية في الدقة والتعقيد، ولا بد في معالجته من بذل عناية خاصة، ولم يكن ذلك بالشيء الجديد عليه. فقد سبق له في مرات عديدة أن جاءوا به من المقهى ليقف في مثل هذا المكان، تحيط به الملابس الرسمية ليدلي بشهادته في حادث ما، كان ضحيته شخص ما.

كانت تلك مهنته الجديدة.. مجرد شاهد زور بعد أن فصل من عمله بعد إدمانه للمخدرات وغيابه المتكرر وتصرفاته السيئة مع العملاء.

والغريب، أنه في زمن قياسي تعلم كل حيل الخروج على القانون للحصول على النقود، يحميه من الموت أو السجن ذلك الاستعداد الخاص الذي يجعل القطط تقفز من ارتفاع شاهق دون أن تصاب بسوء. وفي ذلك اليوم، لم يدر بذهن رجل الشرطة أنه حيال شاهد مأجور كان وقت وقوع الحادث يجلس وسط زوبعة من الدخان في مقهى حقير بجوار مدمن مفلس. ولو دار ذلك الخاطر بذهنه لضيق الخناق على الشاهد، ولسأله عن شكل الغلام القتيل وطول قامته ولون ملابسه، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، وسار كل شيء في مجراه العادي، وخرجت الإجابة من فمه بطريقة طبيعية - نتيجة التمرس - مؤكدة أن السائق لم يخطئ، وأن الغلام هو الذي برز فجأة أمام السيارة من أحد المنحنيات الجانبية.

ومرت ساعة.. وانتهى سيل الأسئلة. وعندما راح يوقع على الأوراق لم يكن يشعر بالذنب بعد أن تبلدت مشاعره إلى حد أنه وجد في نفسه الجرأة على الابتسام.

وانتهى كل شيء، وغادر الغرفة ووجهه خالٍ من أي تعبير، وهو يذكر الآن جيدا أنه أغلق الباب خلفه. وقد لا يكون لإغلاق الباب معنى محدد، إلا أنه فعلها حتى لا يستمع أحد إلى الحديث الهامس الذي دار بينه وبين الرجال الأربعة الذين كانوا في انتظاره، والذي لم يكن يعرف منهم سوى الرجل صاحب الوجه الحاد.. ولا يدري الآن لماذا ذكّره وجهُ هذا الرجل بأجزاء اللحم التي يبيعها القصابون والتي لا تصلح إلا طعاما للقطط والكلاب.

انتهى سيل الأسئلة ووجد في نفسه الجرأة على الابتسام!

وهو يذكر أيضا تلك المشادة الحادة بينه وبينهم عندما سلموه خمسين جنيها. كان عذرهم الوحيد الذي يسوقونه على الدوام هو أنه لم يخسر شيئا بإدلائه ببضعة أسطر تنجي السائق من ظلام السجن، بيد أنهم كانوا مخطئين. لقد كان من المحتم عليه أن يحصل على مبلغ يزيد على الخمسين جنيهات، فأسعار المخدر ترتفع بشكل جنوني، ومطالب أسرته الصغيرة لا تنتهي، ولا مصدر آخر للرزق.

كانت تلك هي الخطوط العريضة لأحداث اليوم، وإن كانت هناك ثمة سطور بيضاء تفصل بين الحوادث، فقد جاءت الجارة العجوز وملأتها بمداد حزين أسود، جعله يشعر بأنه يسقط في قاع هوة سحيقة، انتشرت فيها صرخات طفل لم يتجاوز الخامسة وهو يسلم الروح مضرجا في دمائه.

وببطء قادته قدماه من شارع إلى شارع، وصورة طفله تملأ الفراغ حوله. وعلى الجسر توقف وأخرج ما تبقى في جيبه من نقود. لا شك أنها كانت ستسأله عن مصدرها.. ترى أين هي الآن.. لعلها تجلس دون فهم محدقة في ملابس وحيدها الذي داهمته سيارة مجنونة رحل بعدها إلى وديان الصمت.. كم كان فرحُه عندما سمع بكاءه لأول مرة.. لقد طاف بجميع أقاربه وأصدقائه وأخبرهم مهلّلا بمقدمه.. قال: لقد رزقت بغلام جميل.. قالها بحرارة وافتخار يوجبها الموقف.

وبوجه جامد خال من أي تعبير أفلت النقود من بين أصابعه ثم صعد إلى سور الكوبرى، ودون أن ينظر تحته ألقى بنفسه. وجرفه التيار وهو يتقلب حول نفسه متجها إلى القاع الذي انحدر إليه في حياته ومماته.